

التأويل العرفاني للنص عند الغزالي

مصطفى العارف
باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

الملخص:

يشبّه الغزالي النص ببحر من الأسرار والمكنونات والعلوم لا يستطيع العقل الإنساني الوصول إليها، وأكثر ما يمكن الوصول إليه هو التقاط بعض الأمور السطحية التي تكون نوراً يهتدي به الإنسان في الحياة الدنيا، وما هذه الأمور سوى العلوم الدنيوية التي لا شأن ولا قيمة لها أمام غنى العلوم الدينية والتي يصعب الإحاطة بها. ينتج عن هذا تصنيف للعلوم التي يشملها القرآن إلى علوم دينية، ولُبّها هو معرفة الله تعالى، وعلوم دنيوية تبقى مجرد منزل من منازل السائرين للوصول إلى الغاية القصوى وهي معرفة الله تعالى، ومن هنا يتم تصوّر النص وتحديد أهدافه وغاياته من خلال التمييز بين علوم دنيوية وأخرى أخروية، فيكون الغزالي قد حوّل وغير وظيفة النص حتى تتطابق مع نزعة الصوفية التي تبخس الحياة الدنيا وتعلي من شأن الحياة الآخرة.

أمام هذا التصنيف لم تعد وظيفة النص هي تأسيس مجتمع وتشبيد واقع يقوم به النص بدور المرشد والهادي، ولم تعد الحياة الدنيا مجالاً للعيش الكريم والتمتع بملذاتها والعيش فيها كأنك ستعيش أبداً، بل صارت غاية النص هنا هي الوصول إلى معرفة الله تعالى وتوحيده، وما الحياة الدنيا وكل الأمور المحيطة بها إلا وسيلة من الوسائل المعتمدة للوصول إلى الغاية القصوى، لذلك تبقى الدار الفانية محطة من المحطات التي يمر بها الإنسان ليلبغ مقصده الأسمى والأعلى الذي هو السلوك إلى الله.

تتأسس دراسة النص عند الغزالي على تصورين اثنين، أولهما أشعري وينبني على أنّ النص صفة ذاتية للقاتل لا فعلاً من أفعاله، أي أنّه صفة من صفات الله، عكس التصور المعتزلي الذي يقول بأنّ الإنسان هو المخاطب بالنص والمستهدف من تعاليمه، بينما ينحصر التصور الثاني في محاولة تحويل النص إلى ظاهر وباطن، بل إنّ ظاهره ليس هو باطنه ممّا ينتج عنه بروز طبقتين من الناس: عامّة الناس الذين يكتفون بظاهر النص قصد نيل رضى الله والفوز بجنته التي وعد بها، وخاصّة الناس، وهم أهل التصوف الذين يهدفون إلى فهم المعنى الباطن الخفي الذي لا يتراءى إلا لأصحاب الحكمة والعلم والذين يتشوّقون لمعرفة الله تعالى وذاته وصفاته والفوز بجنته التي لن تكون كما سنرى سوى المعرفة القصوى.

ينتج عن هذا تصنيف للعلوم التي يشملها القرآن إلى علوم دينية ولُبّها هو معرفة الله تعالى، وعلوم دنيويّة تبقى مجرد منزل من منازل السائرين للوصول إلى الغاية القصوى وهي معرفة الله تعالى، ومن هنا يتمّ تصوّر النصّ وتحديد أهدافه وغاياته من خلال التمييز بين علوم دنيويّة وأخرى أخرويّة، فيكون الغزالي قد حوّل وغير من وظيفة النص حتى تتطابق مع نزعتة الصوفية التي تبخس الحياة الدنيا وتعظم الحياة الآخرة.

1- علوم الباب

أ- الطبقة العليا

صارت معرفة الله تعالى هي غاية الغايات، فلم يعد الأهمّ هو الإنسان، ولم يكن قطّ هدف الوحي هو الوصول إلى الإنسان، بل كل الهدف هو التعرف على عظمة الخالق من خلال الإنسان، هذا الأخير في التصور الغزالي مجرد وسيط، وما الحياة الدنيا سوى المركب التي سوف توصلنا إلى شاطئ النجاة لمعرفة الله تعالى، وعلى هذا الأساس سوف يتمّ تقسيم آيات القرآن بُغية تحقيق هذه الغاية، فأصبحت الآيات الدالة على معرفة الله هي سر القرآن ولُبابه الأصفى، بينما الآيات الأخرى وسيط غير مباشر للغاية نفسها والهدف ذاته. وكلّما كان العلم قريباً من تحقيق هذه الغاية ارتفعت قيمته واقترب من الآيات الدالة على معرفة الله، بينما يبقى العلم الآخر قريباً من الآيات الموجودة في مستوى الطبقة السفلى.

"سرّ القرآن ومقصده الأسمى هو تعريف المدعو إليه وهو شرع معرفة الله تعالى¹، وذلك هو الكبريت الأحمر، وتتضمن هذه المعرفة ذات الحق تبارك وتعالى ومعرفة الصفات، ومعرفة الأفعال. أمّا معرفة ذات الله تعالى فهي الياقوت الأحمر، ثم يليه معرفة الصفات وهو الياقوت الأكهب، ويليه معرفة الأفعال وهو الياقوت الأصفر. كما أنّ أنفس هذه اليواقيت أجل وأعز وجوداً، ولا تظفر منه الملوك لعزته إلا باليسير وقد تظفر ممّا دونه بالكثير، فذلك معرفة الذات أضيّقها مجالاً وأعسرّها منالاً وأعصاها على الفكر، وأبعدها عن قبول الذكر، ولذلك لا يشمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات ورجع ذكرها إلى ذكر التقديس المطلق كقوله تعالى: "أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (الشورى)، وسورة الإخلاص وإلى التعظيم المطلق كقوله تعالى: سبحانه وتعالى "عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"².

"وأما الصفات فالمجال فيها أفسح، ونطاق النطق فيها أوسع، ولذلك كثرت الآيات المشتمة على ذكر العلم والقدرة والحياة، والكلام والحكمة، والسمع والبصر وغيرها، وأما الأفعال فبحر متسعة أكنافه، ولا تنال بالاستقصاء أطرافه، بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله، وكل ما سواه فعله، لكن القرآن يشتمل على الجلي منها الواقع في عالم الشهادة كذكر السماوات والكواكب، والأرض والجبّال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر أسباب النبات والحياة، وهي التي ظهرت للحس، وأشرف أفعاله وأعجبها وأدلّها على جلالة صانعها ما لم يظهر للحس بل هو من عالم الملكوت، وهي الملائكة والروحانيات والروح والقلب، وأعني العارف بالله تعالى من جملة أجزاء الأدمي، فإنّهما من جملة عالم الغيب والملكوت"³.

يصرّ الغزالي على أن يجعل من معرفة الله تعالى العلم الأول الذي هو لبّ اللب، حيث يجعله أبو حامد علماً لا يشير إليه القرآن إلا بالتلويحات والإشارات مما يصعب مهمة التعرف عليه، فهي أعسرّها منالاً وأعصاها على الفكر وأبعدها عن قبول الذكر، ولذلك لا يجد الغزالي في القرآن سوى سورة الإخلاص وآية دالة على التقديس المطلق كقوله تعالى (ليس كمثله شيء)، وأخرى تدل على التعظيم المطلق (سبحانه تعالى عما يصفون بديع السماوات والأرض). يحاول الغزالي أن يجعل من هذا العلم الأشرف والأرقى، وبالتالي فإنّ من الأدلة المؤكدة على ذلك قلة الإشارات الدالة عليه ومن ثمة صعوبة التعرف والاطلاع عليه.

¹ Richard. Frank, "Philosophy, theology and mysticism in medieval Islam, text and studies on the development and history of kalam vol I 2005. Ashgate variorum. p. 209

² الأنعام 100-101

³ أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن، اعتنى به وراجعاه سالم شمس الدين، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 2005، ص 46، انظر كذلك:

- Timothy J. Gianotti, Al-Ghazali's unspeakable doctrine of the soul, unveiling the esoteric psychology and eschatology of the Ihya', Brill, Leiden Boston, Köhl 2001, p. 56

وإذا ما انتقلنا من دائرة الذات إلى الصفات وجدناها تتسع أكثر فأكثر، فنجد آيات كثيرة تدل عليها. لكنها كثيرة فيما يخص الأفعال، ذلك أنّ أفعال الله دعت الغزالي إلى التمييز بين عالم الحس وعالم الغيب. فالأفعال تنقسم إلى ما تظهر للحس، وهي الأفعال العادية، أما أشرفها فهي التي لا تظهر للحس، بل هي من عالم الملكوت وهي الملائكة والروحانيات والروح والقلب أعني العارف بالله تعالى من جملة أجزاء الآدمي، فإنّها من جملة عالم الغيب والملكوت، وخارجة عن عالم الملك والشهادة، ومنها الملائكة الأرضية الموكلة بجنس الإنس وهي التي سجدت لآدم، ومنها الشياطين المسلطة على جنس الإنس وهي التي امتنعت عن السجود له، ومنها الملائكة السماوية وأعلام الكروبين، وهم العاكفون في حظيرة القدس، لا التفات لهم إلى الآدميين، بل لا التفات لهم إلى غير الله تعالى، لاستغراقهم بجمال الحضرة الربوبية وجلالها، فهم قاصرون عليه لحاظهم يسجدون الليل والنهار لا يفترّون، ولا تستبعد أن يكون في عباد الله من يشغله جلال الله عن الالتفات إلى آدم وذريته، ولا يستعظم الآدمي إلى هذا الحد، فقد قال الرسول الكريم: "إنّ لله أرضاً بيضاء، مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوماً، مثل أيام الدنيا ثلاثين مرة، مشحونة خلقاً لا يعلمون أنّ الله تعالى يعصى في الأرض ولا يعلمون أنّ الله تعالى خلق آدم وإبليس"، رواه ابن عباس رضي الله عنه.

"واعلم أنّ أكثر أفعال الله وأشرفها لا يعرفها أكثر الخلق، إدراكهم مقصور على عالم الحس والتخيل، وأنهما النتيجة الأخيرة من نتائج الملكوت وهو القشر الأقصى، ومن لم يجاوز هذه الدرجة فكأنّه لم يشاهد من الزمان إلا قشرته ومن عجائب الإنسان إلا بشرته"⁴.

يعطي أبو حامد أمثلة حية عن الأفعال الإلهية المدركة بالحس، فمن أفعاله تعالى وهو بحر الأفعال مثلاً الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام "وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي" (الشعراء 80)، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه، ومن أفعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلها بحسبان، وقد قال تعالى "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ" (الرحمن 5)، وقال "وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ" (يونس 5)، وقال "خَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ" (القيامة 8-9)، وقال "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ" (فاطر 13)، وقال "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (يس 38). ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان، وخسوفهما ولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر، إلا من عرف هياكل تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه.

⁴ جواهر القرآن، سيق ص 46

ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى "يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمَ وَالَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ" (الانفطار 6-8)، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين.

وكذلك لا يعرف كمال معنى قوله تعالى "سَوِّئَتْهُ وَتَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي" (الحجر 29)، من لم يعلم التسوية والنفخ والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، ولو ذهبت أفضل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها، وقد أشرنا إليها، حيث ذكرنا أن جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله، فتلك الجملة تشتمل على هذه التفاصيل، وكذلك كل قسم أجملناه لو شُعب لانشعب إلى تفاصيل كثيرة، فتفكر في القرآن والتمس غرائبه، لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين، وجملة أوائله، وإنما التفكير فيه للتواصل من جملته إلى تفصيله وهو البحر الذي لا شاطئ له⁵.

إنّ بحر الأفعال وحده، وهو الدائرة الثالثة من دوائر "معرفة الله"، يتسع ليشمل كل علوم الدنيا والدين، وإذا كانت علوم الدنيا تنتمي إلى عالم الشهادة والحس، فإنّ علوم الدين تنتمي إلى الغيب والملكوت، ولا بد من الانطلاق من علوم الدنيا للوصول إلى علوم الدين، وما أعسر الأمر بالنسبة إلى الغزالي، ومع ذلك فهو يصر على أن يجعل من القرآن مصدر كل العلوم سواء الدنيوية أو الدينية، بل إنّ العلوم التي يمكن استخراجها من القرآن يستحيل حصرها⁶.

"ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أنّ في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، ولو كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخرى ليس في قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها ويحظى بها بعض الملائكة المقربين، فإنّ الإمكان في حق الآدمي محدود، والإمكان في حق الملك محدود إلى غاية في الكمال بالإضافة، كما أنّه في حق البهيمة محدود إلى غاية في النقصان. وإنّما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه. ويفارق علمنا علم الحق في شيئين: أحدهما انتفاء النهاية عنه، والآخر أنّ العلوم ليست في حقه بالقوة والإمكان الذي ينتظر خروجه بالوجود بل هو بالوجود والحضور، فكل ممكن في حقه من الكمال فهو حاضر موجود، ثم إنّ هذه العلوم ما عدناها وما لم نعدّها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإنّ جميعها

⁵ نفسه، ص 59

⁶ نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط.6، 2005، ص 254

مغتربة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادًا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ⁷.

هكذا تحول النص إلى بحر من الأسرار والمكنونات والعلوم لا يستطيع العقل الإنساني الوصول إليها، وأكثر ما يمكن الوصول إليه هو التقاط بعض الأمور السطحية التي تكون نورًا يهتدي به الإنسان في الحياة الدنيا، وما هذه الأمور سوى العلوم الدنيوية التي لا شأن ولا قيمة لها أمام غنى العلوم الدينية التي يصعب الإحاطة بها، خاصة إذا ما انتقلنا من علم الإنسان إلى علم الملائكة ومن هذا الأخير إلى علم الله. فالإنسان يبدأ رحلته المعرفية من علم الدنيا وصولاً إلى علوم الدين، ومن الأفعال إلى الصفات، ثم من الصفات إلى الذات فهي ثلاث طبقات: أعلاها علم الذات، ولا يحتملها أكثر الأفهام، ولذلك قيل لهم "تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ". وإلى هذا التدرج يشير تدرج الرسول عليه السلام في ملاحظته ونظره حيث قال: "أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ" فهذه ملاحظة الفعل، ثم قال: "وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ"، وهذه ملاحظة الصفات؛ ثم قال: "وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ"، وهذه ملاحظة الذات؛ فلم يزل يترقى إلى القرب درجة درجة، ثم عند النهاية اعترف بالعجز فقال: "لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"، فهذا أشرف العلوم⁸.

إنَّ علم الذات علم عسير وأرقى دوائر علوم معرفة الله، والرسول صلى الله عليه وسلم قد انتقل من الأفعال إلى الصفات إلى الذات ثم أقر بعجزه، فما بالك بالمؤمن العادي؟ فهذا المؤمن لا يستطيع التعرف على هذا العلم بل لا يجب حتى إظهاره له ولا يصلح إظهاره إلا لمن أتقن علم الظاهر، ويؤكد الغزالي تصنيفه الطبقي للعلوم حينما يدرج علماً آخر يتلو علم الذات في الشرف وهو علم الآخرة والمعاد، وحقيقته معرفة نسبة العبد إلى الله تعالى عند تحققه بالمعرفة، "وهذا العلم نفسه لا يجب أن يطلع عليه المؤمن العادي، إلا من أتقن علم الظاهر وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس وطرق المجاهدة، حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل، فلم يبق له حظ في الدنيا ولم يبق له طلب إلا الحق، ورزق مع ذلك فطنة وقادة، وقريحة منقادة، وذكاءً بليغاً، وفهماً صائباً، وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات، فهذه هي مجامع العلم التي تنتشعب من القرآن ومراتبها"⁹.

أمام هذا التصنيف لم تعد وظيفة النص هي تأسيس مجتمع وتشديد واقع يقوم فيه النص بدور المرشد والهادي، ولم تعد الحياة الدنيا مجالاً للعيش الكريم والتمتع بملذاتها والعيش فيها كأنك ستعيش أبداً، بل صارت

⁷ جواهر القرآن، ص 58

⁸ نفسه، ص 56

⁹ نفسه، ص 56-57

غاية النص هنا هي الوصول إلى معرفة الله تعالى وتوحيده¹⁰، وما الحياة الدنيا وكل الأمور المحيطة بها إلا وسيلة من الوسائل المعتمدة للوصول إلى الغاية القصوى، لذلك تبقى الدار الفانية محطة من المحطات التي يمر بها الإنسان ليبلغ مقصده الأسمى والأعلى الذي هو السلوك إلى الله.

ب- علوم اللباب الطبقة السفلى

تقع هذه العلوم بين علوم الدين وعلوم الدنيا فهي أقل قيمةً وشرافاً من علوم الدين، وتكتسب قيمة على علوم الدنيا، ويصنّف أبو حامد في العلوم الوسطى معرفة قصص القرآن وما يتعلّق بالأنبياء، ثمّ حاجة الكفار ومجادلتهم وهو علم الكلام، وأخيراً علم الحدود الموضوع للاختصاص بالأموال والنساء وهو علم الفقه.

أمّا هذا العلم الأخير وهو الأوّل من حيث الأهميّة حسب أبي حامد، فيتولاه الفقهاء ويشرح الاختصاصات المالية ربع المعاملات من الفقه، ويشرح الاختصاصات بمحلّ الوراثة أعني النساء ربع النكاح، ويشرح الزجر عن مفسدات هذه الاختصاصات ربع الجنايات، وهذا علم تُعْمُ إليه الحاجة لتعلقه بصلاح الدنيا أولاً ثم بصلاح الآخرة¹¹.

و يحاول الغزالي أن يدرج كل آيات الأحكام والحدود داخل هذا الإطار الذي حدده من منظوره الصوفي لعمل الفقه، وهو الحفاظ على النفس والنسل، حيث جعل من آيات المبيعات والربويّات والمداينات والمواريث وموجب النفقات وقسم الغنائم والصدقات والمناكحات والعنق والكتابة والاسترقاق والسبي، من باب الحفاظ على النفس. وتدخل آيات النكاح والطلاق والرجعة والعدة والخلع والصدّاق والإيلاء والظاهر واللعان وآيات محرمات النسب والرضاع والمصاهرات في باب الحفاظ على النسل. بينما تدخل آيات الحدود والقتال والكفارات والديات والقصاص، في إطار دفع المفساد، إذ هي عقوبات يتوخى من ورائها عدم معاودة فعل هذا الأمر أو ذاك.

أما جهاد الكفار وقتالهم فدفعا لما تعرض من الجاحدين للحق من تشويش أسباب المعيشة والديانة اللتين بهما الوصول إلى الله تعالى، وأما قتال أهل البغي فدافعه لما يظهر من الاضطراب، بسبب استلال المارقين عن ضبط السياسات الدينية التي يتولاها حارس السالكين وكافل المحقين نائباً عن رسول رب العالمين¹².

¹⁰ Timothy, op.cit, p. 60

¹¹ جواهر القرآن، ص 55

¹² نفسه، ص ص 50-51

يظهر بجلاء كيف أنّ الغزالي يحاول أن يجعل من بعض ركائز الشريعة هدفاً بعينه للغاية القصوى وهي الوصول إلى الله تعالى، فعوض أن يجعل من الجهاد وسيلة لنشر العدل يحوله إلى وسيلة لحماية الوجود البشري والديانة، واللذين هما وبهما يمكن الوصول إلى الله تعالى، ومنه يُسخر أبو حامد نزعة الصوفية لتحويل مقاصد الشريعة والدين، وغاية كل هذا، في نظر الغزالي، هي الوصول إلى الله تعالى ومعرفة قصد نيل الفلاح الآخروي.

ويؤكد أبو حامد هذا المعطى حينما يحصر مهمة علم الفقه في "تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية التأهب للزاد والاستعداد بإعداد السلاح الذي يدفع سراق المنازل وقطاعها، وبيانه أنّ الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى، والبدن مركب فمن ذهل تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله تعالى الذي هو السلوك ولا يتم ذلك حتى يبقى بدنه سالمًا ونسله دائماً، ويتم كلاهما بأسباب الحفظ لوجودهما وأسباب الدفع لمفسداتهما ومهلكاتهما"¹³.

ومنه تكون الغاية من الوجود الإنساني بوصفه "سفرًا" إلى الله وليس تحقيق هذا الوجود بذاته، فتكون الدنيا مجرد "منزل" من منازل السفر. وإذا كان المسافر هو "القلب" الذي هو مسكن "الروح" فإنّ البدن مجرد "مركب" وأداة لهذا القلب. وعلى ذلك تنحصر وظائف علم الفقه في حفظ البدن وحفظ أمور المعاش الدنيوية، والذي يقيم البدن هو الأكل والشرب، والذي يحفظ أمور معاش الدنيوية بقاء النسل¹⁴.

بعد الفقه من حيث الأهمية يأتي علم الكلام والذي يسميه الغزالي بمحاجة الكفار ومجادلتهم، ومنه يتشعب علم الكلام المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات ويتكفل به المتكلمون والمغزى من هذا العلم، حسب أبي حامد، هو حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة¹⁵، ولا يكون هذا العلم معنيًا بكشف الحقائق فدوره محصور في الحفاظ على معتقدات العامة وعدم إطلاعهم على الأمور الدينية الدقيقة والتي هي نطق جدال بين المتكلمين¹⁶، ويكون علم الكلام هنا هو فضح أقاويل الكفار بالبرهان الواضح وكشف تخاييلهم وأباطيلهم، وهي ثلاثة أنواع: أولاها ذكر الله تعالى بما لا يليق له من أنّ الملائكة بناته، وأنّ له ولدًا شريكًا وأنّه ثالث ثلاثة، وثانيها ذكر رسول الله عليه السلام بأنّه ساحر كاهن وكذاب، وإنكار نبوته وأنّه بشر كسائر الخلق فلا يستحق أن

¹³ نفسه، ص 51

¹⁴ نصر حامد أبو زيد، سبق ذكره، ص 263

¹⁵ Timothy, op.cit, p. 68

¹⁶ Richard M. Frank, op.cit, pp. 218-219

يتبع، وثالثها إنكار اليوم الآخر ووجد البعث والنشور والجنة والنار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية، وفي حاجة الله تعالى إياهم بالحجج لطائف وحقائق، ويوجد فيها الترياق الأكبر وآياته أيضاً كثيرة ظاهرة¹⁷.

ويلي علم الكلام القصص القرآني وهو يتعلق بمعرفة قصص القرآن وما يتعلق بالأنبياء وبالجاحدين والأعداء، ويتكفل بهذا العلم القصص الوعظ وبعض المحدثين وهذا علم لا تعم إليه الحاجة، ويقسم الغزالي قصص القرآن إلى قسمين: "الأول يخص بأحوال السالكين وهي قصص الأنبياء والأولياء، كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ومريم وداود، وسليمان ويونس ولوط وإدريس الخضر وشعيب وإلياس ومحمد عليه السلام وجبريل وميكائيل والملائكة وغيرهم، وأما أحوال الناكبين فهي كقصص نمرود وفرعون وعاد وقوم لوط، وقوم ثبّع وأصحاب الأيكة وكفار مكة وعبد الأوثان وإبليس والشياطين وغيرهم. وفائدة هذا القسم الترهيب والتنبيه والاعتبار، ويشتمل أيضاً على أسرار ورموز إشارات محوجة إلى التفكير الطويل وفيهما يوجد العنبر الأشهب، والعود الرطب الأنضر والآيات الواردة فيهما كثيرة يحتاج إلى طلبها وجمعها"¹⁸.

لاشك في أنّ أبا حامد كان مضطراً هنا إلى عدم ذكر الغاية من ذكر قصص الأنبياء، حتى يتماشى ذلك مع تصوره الصوفي للنص والتمثل في غايته القصوى الدينية وليست الدنيوية، وما يؤكد صحة هذا الافتراض هو ذكره لفائدة القسم المتعلق بأحوال الناكبين والتمثل في الترهيب والتنبيه والاعتبار مخافة عدم نيل الفوز والفلاح الأخروي بعيداً عن الوظيفة الدنيوية التي يمكن أن يؤديها النص الديني.

2- علوم القشر والصدف

إذا كان النص ينقسم، حسب الغزالي، إلى علوم لباب من درجة عليا، وأخرى من درجة سفلى، فإنّه يتوفر أيضاً على علوم القشر والصدف أي علوم ظاهرية لكن ليس في مجملها، فهذه العلوم ليست على مرتبة واحدة، بل للصدف وجه إلى الباطن ملاق للدرّ قريب الشبه به لقرب الجوار ودوام المماسّة ووجه إلى الظاهر الخارج قريب الشبه بسائر الأحجار، لبعد الجوار وعدم المماسّة، فكذاك صدف القرآن ووجهه البراني الخارج وهو الصوت والذي يتولى علم تصحيح مخارجه في الأداء والتصويت صاحب علم الحروف، فصاحبه صاحب علم القشر البراني البعيد عن باطن الصدف فضلاً عن نفس الدرة¹⁹.

¹⁷ جواهر القرآن، ص 49

¹⁸ Wolfson, Harry Austin, the philosophy of the kalam, Harvard University Press, Cambridge, London, 1976, p. 41

¹⁹ جواهر القرآن، ص ص 48-49

وتكون بذلك علوم القشر والصدف بالنسبة إلى القرآن خمسة علوم هي: علم مخارج الحروف وهو علم مرتبط بقراءة النص وأدائه، ثم علم لغة القرآن وهو العلم الذي يبحث في الألفاظ من جميع نواحيها، يلي ذلك علم إعراب القرآن، وعن هذا العلم يتفرغ علم رابع هو علم القراءات وتنتهي إلى علم خامس هو علم التفسير الظاهر.

إنّ ترتيباً على هذه الشاكلة أي من حيث البدء بالمخارج والانتهاى بالتفسير الظاهر إلى جانب أنّه ترتيب تصاعدي من الجزء إلى الكل ومن الصوت إلى الدلالة، ترتيب تقييمي يبدأ بالأدنى ويرتقي إلى الأرقى والأسمى، وكلما اقترب العلم من القشر والصدف قلّت قيمته، في حين تتزايد قيمة العلم الذي يبتعد من القشر الأول ويقترب من الجواهر²⁰.

وإذا قمنا بالتفصيل في هذه العلوم سوف نجد في أولها "علم المقرئ، إذ لا يعلم إلا بصحة المخارج، ثم يليه في الرتبة إلى القرب علم لغة القرآن، وهو الذي يشتمل عليه مثلاً ترجمان القرآن وما يقاربه من علم غريب ألفاظ القرآن، ثم يليه في الرتبة إلى القرب علم إعراب اللغة وهو النحو، فهو في وجه يقع بعده لأنّ الإعراب بعد المعرب، ولكنه في الرتبة دونه بالإضافة إليه لأنّه كالتابع للغة، ثم يليه علم القراءات وهو ما يعرف به وجوه الإعراب وأصناف هيئات التصويت، وهو أخص بالقرآن من اللغة والنحو، ولكنه من الزوائد المستغنى عنها دون اللغة والنحو فإنّهما لا يستغنى عنهما. فصاحب علم اللغة والنحو أرفع قدرًا ممن لا يعرف إلا علم القراءات، ولكنهم يدورون على الصدف والقشر وإن اختلفت طبقاتهم. ويليه علم التفسير الظاهر، وهو الطبقة الأخيرة من الصدف القريبة من مماسة الدر، ولذلك يشتد به شبهه حتى يظن الظانون أنّه الدر وليس وراءه أنفس منه، وبه قنع أكثر الخلق، وما أعظم غبنهم وحرمانهم، إذ ظنوا أنّه لا رتبة وراء ربتهم، ولكنهم بالإضافة إلى سواهم من أصحاب علوم الصدف على رتبة عالية شريفة إذ علم التفسير عزيز بالنسبة إلى تلك العلوم، فإنّه لا يراد لها، بل تلك العلوم تراد للتفسير"²¹.

إنّ الغزالي حريص كل الحرص على التمييز بين هذه العلوم وترتيبها ترتيباً تصاعدياً بغاية خدمة أهداف النص، فحتى علم التفسير الذي له شأن كبير في الدراسات الدينية يجعل منه أبو حامد ذا مكانة نسبية، فهو قريب من مماسة الدر ولذلك يشتد به شبهه حتى يظن الظانون أنّه الدر، لكنه مع ذلك يبقى علماً ثانوياً خادماً لغايات أخرى يريدها النص. كذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة، فليس الهدف هو فك شفرات لغة النص وألغازه، بل الذهاب إلى ما وراء اللغة، إلى المتحدث القديم الذي يحتفظ بالمعنى الأبدي الأزلي والثابت غير المتغير، فتكون

²⁰ نفسه، ص 52-53

²¹ نصر حامد أبو زيد، سبق ذكره، ص 249

اللغة مجرد وسيلة وأداة لكشف حجاب المعنى الثابت الأزلي، وهذه هي مكانة علوم اللغة، فلا يكون المعنى أو الدلالة هو الهدف، بل معنى المتكلم القديم الذي نسعى إليه من خلال فك شفرة النص²². يدرج الغزالي هذه العلوم الخمسة في العلوم المنتمية إلى علوم الدنيا فيكون بذلك دورها دوراً ثانوياً، إنها لا تستطيع أن ترقى إلى علم الآخرة، فبدلاً من علم المقري ومروراً بعلم لغة القرآن ثم علم إعراب اللغة وعلم القراءات، ومع ما يشير إليه أبو حامد من أن هذا العلم هو من الزوائد المستغنى عنها، وصولاً إلى علم التفسير الظاهر، كل هذه العلوم لا يمكنها أن تكون سوى وسيلة لكشف أسرار النص ومن خلالها الوصول إلى المطلق، والكشف عن صفاته أي معرفة الله تعالى وهي غاية الغايات عند الغزالي.

3- التأويل

تنقسم علوم القرآن، حسب الغزالي، إلى علوم أخروية ذات قيمة عليا، والثانية علوم دنيوية قيمتها أقل شأنًا من الأولى، ويقارن أبو حامد بين علوم اللباب وعلوم القشر والصدف بأن يجعل الأولى رهينة عالم الغيب والملوك، والثانية رهينة بعالم الحس والشهادة، ويكون الأسمى هو الانتقال من عالم الحس والشهادة إلى عالم الغيب والملوك، وكل ذلك إطار النص الذي كما ذكرنا يبقى بالنسبة إلى الغزالي نصاً غنياً بالرموز والشفرات التي يكون على المؤمن غير العادي فكها كي يصل إلى طريق الله تعالى ومعرفة ذاته. فالتكلف والترسم ممقوت عند ذوي الجد، فما كلمة طمس، إلا وتحتها رموز وإشارات إلى معنى خفي، يدركها من يدرك الموازنة والمناسبة بين عالم الملك وعالم الشهادة، وبين عالم الغيب والملوك، إذ ما من شيء في عالم الملك والشهادة إلا وهو مثال لأمر روحاني من عالم الملوك، كأنه هو في روحه ومعناه، وليس هو في صورته وقالبه، والمثال الجسماني من عالم الشهادة مندرج إلى المعنى الروحاني من ذلك العالم، ولذلك كانت الدنيا منزلاً من منازل الطريق على الله ضرورياً في حق الإنس، إذا كما يستحيل الوصول إلى اللب إلا من طريق القشر فيستحيل الترقى إلى عالم الأرواح إلا بمثال عالم الأجسام²³.

هذا العبور من القشر إلى اللب توازيه عملية العروج الخيالية بالقلب من عالم الحس والشهادة إلى عالم الغيب والملوك، فعالم الحس والشهادة تتوفر فيه الماديات المحسوسة، لكن هذه الماديات يوجد لديها في عالم الملوك أمر روحاني، أي أن ما يوجد في عالم الروحانيات هو مثالات لما يوجد في عالم الحس والشهادة، ويتم العبور من العالم الثاني إلى الأول عبر عملية التأويل تماماً كما يحدث في الأحكام والرؤى، فانظروا إلى ما

²² جواهر القرآن، ص 53

²³ نصر حامد أبو زيد، سبق ذكره، ص 250

ينكشف للنائم في نومه من الرؤيا الصحيحة التي هي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وكيف ينكشف بأمثلة خيالية، فمن يعلم الحكمة غير أهلها، يرى في المنام أنه يعلق الدر على الخنازير ورأى بعضهم: أنه كان في يده خاتم يختم به فروج النساء وأفواه الرجال فقال له ابن سيرين: أنت رجل تؤذن في رمضان قبل الصبح، فقال: نعم ورأى آخر كأنه يصب الزيت في الزيتون، فقال له: إن كان تحتك جارية فهي أمك فقد سُبِّتَ وبيعت واشتريتها أنت ولا تعرف فكان كذلك²⁴. ويزيد الغزالي من التأكيد على نظريته في تأويل النص اعتماداً على التمييز بين علوم القشر وعلوم اللباب فيستند على نزعه الصوفية كي يبين أن النص الديني يحيل في ظاهره على معنى معين، لكن باطنه غني بالدلالات والمعاني القديمة، والتي مصدرها من الذات المتكلمة الأزلية، فالمفسر مهما علت منزلته فإنه يدور على القشر وما تأويل أبي حامد الآية التي تقول "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقُدْرِهَا فَأَخْلَجَ السَّيْلَ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ" (الرعد الآية 17)، وما الماء إلا العلم، والأودية هي القلوب، والزبد هو الينابيع والضلال، إلا تأكيد على تشبيهه بتأويلاته ذات النزعة الصوفية المستندة على معان ودلالات خفية تنتمي إلى عالم الروحانيات والملكوت، عالم الحياة الحقيقية، وما الحياة الدنيا إلا عالم الصور المادية غير الحقيقية، فالإنسان العادي مثله مثل النائم، فما دمت في الحياة فأنت نائم وإنما يقظتك بعد الموت، وعند ذلك تصير أهلاً لمشاهدة صريح الحق كفاحاً، وقبل ذلك لا تحتل الحقائق إلا مصبوبة في قالب الأمثال الخيالية، ثم جمود نظرك على الحس تظن أنه لا معنى له إلا المتخيل، وتغفل عن الروح كما تغفل عن روح نفسك ولا تدرك إلا قالبك²⁵.

وعلى الرغم من محاولة المؤمن الوصول إلى عالم الملكوت فإن أسرار هذا العالم محجوبة عن القلوب الدنسة بحب الدنيا، التي استغرق أكثر همها طلب العاجلة، وإنما ذكرنا هذا القدر تشويقاً وترغيباً ولننبه به على سر من أسرار القرآن، من غفل عنه لم تفتح له أصداف القرآن عن جواهره البتة²⁶.

تبقى إذن مهمة المؤمن عسيرة في الوصول إلى عالم الملكوت والروحانيات، وحتى إن وصل إلى هدفه فإن أسرار هذا العالم تبقى محجوبة خفية مقتصرة فقط على ذوي القلوب المتعطشة لحب الله ومعرفته والوصول إلى طريقة قصد نيل رحمته والفوز بنعيمه، وما النعيم، حسب أبي حامد، سوى المعرفة القصوى بذات الله تعالى وليس كما تتصوره عامة الناس من لذائذ ومتع مادية.

²⁴ جواهر القرآن، ص 60

²⁵ نفسه.

²⁶ نفسه، ص 62

هكذا يتحول النص إلى "سر" مقفل يحتاج إلى جهد خارق لكي تنفتح مغالقه ويكشف عن أسرارها، ويكون بذلك هذا "السر" بمثابة شفرة خاصة لا يطمح الإنسان العادي إلى الاقتراب من حدودها إلا بشق الأنفس. ولتأكيد هذا الأمر يستعمل الغزالي صوراً لغوية واستعارات مأخوذة من مجال الطبيعة كالبحر والسواحل والشواطئ والجزر واليوافيت والعود والترياق للدلالة على النص. فالقرآن هو البحر المحيط وينطوي على أصناف الجواهر والنفائس، يقول: "فإنّي أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك المتخذ دراسة القرآن عملاً، المتعلق من معانيه ظواهر وجمالاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها؟ أو ما كان لك أن تركب متن لجّتها لتبصر عجائبها؟ وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها؟ وتغوص في عمقها فتتغني بنيل جواهرها؟ أو ما تعبر نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أو ما بلغك أنّ القرآن هو البحر المحيط؟ ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها؟ أو ما تغبط أقواماً خاضوا في غمرة أمواجها فظفروا بالكبريت الأحمر؟ وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر، والدُرّ الأزهر، والزبرجد الأخضر وساروا في سواحلها، فالتقطوا العنبر الأشهب، والعود الرطب الأخضر؟ وتعلقوا إلى جزائرها واستدروا من حيواناتها الترياق الأكبر، والمسك الأذفر"²⁷.

يبدو جلياً كيف يجعل الغزالي من القرآن بحرّاً ساحله مليء بالأصداف الخالية والرمال، في حين أنّ أعماقه مليئة بالجواهر والدرر، وكلما بقي الإنسان على ساحل البحر، أي على ظاهر النص، وجد نفسه خالي الوفاض لا يتحصل على شيء، بينما كلما همّ إلى أعماق البحر، وتجاوز ظاهر النص، تزود بالجواهر والدرر أي المعنى الحقيقي للنص، وليست هذه المهمة بالسهلة، فكما أنّ الغوص في أعماق البحر خاص ببعض الناس فقط، فكذلك الغوص في مضمون النص والوصول إلى معناه الحقيقي مخصوص ببعضهم فقط، وكما أنّ عامة الناس تستطيع وبسهولة أن تبقى على ساحل البحر، فإنّ الأمر كذلك بالنسبة إلى الذين يتقيدون بظاهر النص وسطحه.

ولا يقف الغزالي عند هذا الحد بل يسخر كل طاقاته اللغوية الرمزية في الإشارة إلى أهمية العلوم المتفرعة عن القرآن الكريم، وأول هذه العلوم وأرقاها معرفة ذات الحق تبارك وتعالى وهو الياقوت الأحمر الذي يستخرج من الكبريت الأحمر، والذي ليس سوى عبارة عن الكيمياء التي يتوصل بها إلى قلب الأعيان من الصفات الخسيسة إلى الصفات النفيسة حتى ينقلب به الحجر ياقوتاً والنحاس ذهباً إبريزاً ليتوصل به إلى اللذات

في الدنيا مكدرة منغصة في الحال منصرمة على قرب الاستقبال²⁸. (ولما كان الياقوت الأحمر هو أنفس النفائس صار دلالة على علم الذات الإلهية، ثم يليه بعد ذلك معرفة الصفات وهو الياقوت الأكهب ثم معرفة الأفعال وهو الياقوت الأصفر. أما القسم الآخر من العلوم فهو "تعريف طريق السلوك إلى الله تعالى"، ويشار إليه "بالدر الأزهر" وإلى القسم الثالث الخاص بتعريف الحال باسم "الزمرد الأخضر").

وإذا عرجنا على التمثيلات التي يعطيها الغزالي للعلوم الدنيوية الأخرى فسنجد أنه يمثل علم الكلام بالترياق الأكبر، فهو عند الخلق عبارة عما يشفى به من السموم المهلكة الواقعة في المعدة، مع أن الهلاك الحاصل بها ليس إلا هلاكاً في حق الدنيا الفانية، فانظر إن كانت سموم البدع والأهواء والضلالات الواقعة في القلب، مهلكة هلاكاً يحول بين السموم وبين عالم القدس ومعدن الروح والراحة حيلولة دائمة أبدية سرمدية، وكانت المحاجة البرهانية تشفي عن تلك السموم وتدفع ضررها. هل هي أولى بأن تسمى الترياق الأكبر أو لا؟²⁹

أما الفقه فهو المسك الأذفر الذي هو عبارة في عالم الشهادة عن شيء يستصعبه الإنسان، فيثور منه رائحة طيبة تشهره وتظهره، حتى لو أراد إخفاءه لم يختف، لكن يستطير وينتشر، فانظر بأن كان في المقتنيات العلمية ما ينشر منه الاسم الطيب في العالم، ويشتهر به صاحبه اشتهاراً حتى لو أراد الاختفاء وإيثار الخمول، بل تشهره وتظهره، فاسم المسك الأظفر عليه أحق وأصدق أم لا؟ وأنت تعلم أن علم الفقه ومعرفة أحكام الشريعة يُطيب الاسم وينشر الذكر ويعظم الجاه وما ينال القلب من روح طيب الاسم وانتشار الجاه أعظم كثيراً مما ينال الشام من روح طيب رائحة من المسك³⁰.

الحال أن تصور أبي حامد للتأويل يشوبه الكثير من الدلالات الرمزية ذات البعد المجازي، فهو لم يذخر جهداً في جعل ألفاظ القرآن ولغته رموزاً ودلالات خفية وجب فك أغازها للوصول إلى أسرارها، وهذا القلب للغة من مجرد منطوقات وملفوظات ذات دلالة أو دلالات متعددة، إلى رموز، وليس نظاماً رمزياً، يجعل من الألفاظ تتوفر على بعدين: أحدهما حقيقي وهو المعنى الروحي الملكوتي، والآخر ظاهري وهو القشرة الخارجية وهو الدلالة اللغوية المألوفة³¹، فحرص الغزالي على الفصل بين العالم الدنيوي الذي هو عالم عامة الناس، وبين عالم الغيب والملكوت الذي هو عالم أهل التصوف، جعله يقسم أيضاً النص القرآني، ليس على

²⁸ نفسه، ص 43

²⁹ نفسه، ص 64

³⁰ نفسه.

³¹ نفسه، ص 65

مستوى المضمون فقط، ولكن أيضاً على مستوى الشكل، فمن بقي رهين ظاهر النص يكون باعه قليلاً في معرفة حقيقة النص وسيقتصر على القشور فقط، ومن غاص في أعماق النص، وهذا الأمر لا يطاله الجميع، يعرف المعنى الحقيقي والأبدي لهذا النص، ويكشف المغزى والمقصد والهدف المطلق من ورائه، والذي لن يكون سوى محاولة الوصول إلى معرفة ذات الله تعالى.

4- الظاهر والباطن

كان من الطبيعي كي يؤكد الغزالي تصويره هذا للنص أن يجعل منه ظاهراً وباطناً، حيث يكون أهل الظاهر هم عامة الناس وأهل الباطن هم خاصتهم، ولا يعطي الغزالي معايير مضبوطة لتصنيفه الطبقي هذا، بل إننا في كل مرة نجد يتبع هذا الفريق ومرة أخرى الفريق الآخر، ومن كثرة غموض موقفه من هذه المسألة نجد يصنف الفلاسفة ضمن أهل الظاهر الذين تقيّدوا بظواهر النص وهو تقيّد انتهى بهم إلى الكفر والإلحاد والهلاك المحقق، يقول: "رأينا من طوائف المتكاسين من تشوّشت عليهم الظواهر وانقدحت عندهم اعتراضات عليها وتخايل لهم ما يناقضها، فبطل أصل اعتقادهم في الدين وأورثهم ذلك جحوداً باطنياً في الحشر والنشر والجنة والنار والرجوع إلى الله تعالى بعد الموت، وأظهروها في سرائرهم وانحل عنهم لجام التقوى ورابطة الورع، واسترسلوا في طلب الحطام وأكل الحرام واتباع الشهوات وقصروا لهم طلب الجاه والمال والحظوظ العاجلة. وهذا كله لأنّ نظر عقلهم مقصور على صور الأشياء وقولها الخالية ولم يمتد نظرهم إلى أرواحها وحقائقها، ولم يدركوا الموازنة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت. فلما لم يدركوا ذلك وتناقضت عندهم ظواهر الأسئلة ضلوا وأضلوا، فلا هم أدركوا شيئاً من عالم الأرواح بالذوق إدراك الخواص، ولا هم آمنوا بالغيب إيمان العوام فأهلكتهم كياستهم، والجهل أدنى إلى الخلاص من فطنة بتراء وكياسة ناقصة، ولسنا نستبعد ذلك فلقد تعثرنا في أذيال هذه الضلالات مدة لشؤم أقران السوء وصحبتهن حتى أبعدنا الله عن هفواتها ووقانا من ورطاتها، فله الحمد والمنة وأفضل على ما أرشد وهدى وأنعم وأسدّى وعصم من ورطات الردى فليس ذلك مما يمكن أن ينال بالجد والمنى³².

يتهم أبو حامد الفلاسفة بأنهم تقيّدوا بظاهر النص فضلوا وأضلوا، متناسياً، أو متجاهلاً، أنّ الفلاسفة كانوا أول من حاول تأويل الظاهر حتى يتوافق مع العقل، أي تأويل المنقول حتى يتوافق مع ظاهر المعقول، والغزالي نفسه يؤكد هذا الأمر حين يقول: وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذي ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحية في الآخرة بظنون وأوهام

³² نصر حامد أبو زيد، سبق ذكره، ص 28

واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعاً، إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين فيجب تكفير كل من تعلق به وهو مذهب أكثر الفلاسفة³³.

وحتى يجد الغزالي مشروعية لتصنيفه الطبقي هذا بين العامة والخاصة يحاول أن يجد أساساً لهذا التصنيف من داخل عقيدة السلف، والسلف في هذا المعنى كل ما أخذه الصحابة عن الرسول الكريم ومن ثمة فإنّه هو الطريق السوي الذي يجب أن يتبعه كل مؤمن صالح، فالحق الذي لا مرأى فيه، في نظر الغزالي، عند أهل البصائر هو مذهب السلف أي مذهب الصحابة والتابعين، وعلى أساس هذا المذهب يتم تحديد ما يجب الخوض فيه وما لا يجب، أي التحديد المسبق لطبقات من الناس، عامة وهم أهل المعرفة الظاهرية التي لا يجب أن تشوبها شائبة وإن تم وحصل سوف يقع خلط في عقيدة العوام، ثم خاصة وهم قلة متمثلون في أهل الذكر والراسخون في العلم الذين لا يفارقون كتاب الله وسنة رسوله تلاوة وتمحيصاً وتفسيراً، لعلهم يصلون إلى المراد والمعنى الأصلي والحقيقي للنص، لذلك وجب على العامي الذي يصله حديث من الأحاديث أن يلتزم بسبعة أمور يحددها أبو حامد وهي: **التقديس**، وهو تنزيه الله تعالى عن الجسمية وتوابعها المذكورة في القرآن، ثم **التصديق** وهو الإيمان بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام وإنّ ما ذكره حق وهو فيما قاله صادق، وأنّه حق على الوجه الذي قاله وأراد، ثم **الاعتراف** بالعجز وهو الإقرار بأنّ معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأنّ ذلك ليس من شأنه وحرفته، و**السكوت** ومرده أن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم أنّ سؤاله عنه بدعة، وأنّه في خوضه فيه مخاطر بدنية وأنّه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر، ثم يليه **الإمساك** عن التصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق، بل لا ينطلق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة، و**الكف** عن باطن الحديث عن البحث عنه والتفكير فيه، ثم أخيراً **التسليم لأهله**، وهو عدم الاعتقاد أنّ ذلك إن خفي عليه لعجزه فقد خفي على الرسول الكريم أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء³⁴.

إنّ العامة يجب أن تتبع هذه القواعد السبع حتى لا تتجاوز الخطوط الحمراء، وحتى لا يختلط عليها الحابل بالنابل فيما يتعلق بكل أمور الدين، فاقصرهم على هذه القواعد سيمكنهم من التمسك بالطريق الصحيح

³³ جواهر القرآن، ص 66. أنظر كذلك:

- Richard. Frank, op.cit, pp. 247-249

³⁴ أبو حامد الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، مكتبة الثقافة الدينية، 2004، ص 39

للدين على اعتبار أنّ كثرة البحث والأسئلة سيؤدي بهم لا محالة إلى الكفر، علماً أنّ هذه المهمة خاصة بالخاصة فقط، فهم القادرون على فك شفرات الآيات والأحاديث وإعطائها المعنى الحقيقي³⁵.

وليس الخاصة، في تصور الغزالي، سوى أهل التصوف، فالناس نوعان: أهل العوام وهم كثرة، وأهل التصوف وهم قلة قليلة، هذان طريقان للخلاص، أما باقي الطرق فتؤدي بك إلى الهلاك لا محالة. وليس الخلاص هنا سوى الفوز بالجنة وبنعيمها، لكن النعيم له معنيان، معنى ظاهري وهو الدلالة اللغوية التي تشير إلى النعيم المادي المحسوس والملموس، ثم النعيم الباطني أو الروحي وهو "المعرفة"، التي تعني في عبارة الصوفية العلم الذي لا يقبل الشك، إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته. وعلامة المعرفة حياة القلب مع الله تعالى فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أتدري ما معرفتي؟ قال: لا، قال: **حياة القلب في مشاهدتي**³⁶.

يقول أبو حامد: "فتنبه لهذا النمط من التصرف في قوارع القرآن وما يتلوه عليك ليغزر علمك وينفتح فكرك فتري العجائب والآيات وتنشرح في جنة المعارف وهي الجنة التي لا نهاية لأطرافها إذ معرفة جلال الله وأفعاله لا نهاية لها، فالجنة التي تعرفها خلقت من أجسام، فهي وإن اتسعت أكنافها متناهية، إذ ليس في الإمكان خلق جسم بلا نهاية فإنّه محال. وإياك أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير فتكون من جملة البله، وإن كنت من أهل الجنة، قال عليه السلام: "أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب"³⁷.

ثم يضيف: "فاعلم قطعاً أنّ كل قسم منها مفتاح باب من أبواب الجنة (الفاتحة) تشهد به الأخبار. فإن كنت لا تصادف من قبلك الإيمان والتصديق به وطلبت فيه المناسبة فدع عنك ما فهمته من ظاهر الجنة فلا يخفى عليك أنّ كل قسم يفتح باب بستان من بساتين المعرفة، ولا تظن أنّ روح العارف من الانشراح في رياض المعرفة وبساتينها أقل من روح من يدخل الجنة التي تعرفها ويقضي فيها شهوة البطن والفرج وأنّى يتساويان. بل لا يُنكرُ لأن يكون في العارفين من رغبته في فتح أبواب المعارف لينظر إلى ملكوت السماء والأرض وجلال خالقها ومدبرها أكثر من رغبته في المنكوح والمأكول والملبوس، وكيف لا تكون هذه الرغبة أكثر وأغلب على العارف البصير وهي مشاركة للملائكة في الفردوس الأعلى، إذ لا حظ للملائكة في المطعم والمشرب والمنكح والملبس، ولعل تمتع البهائم بالمطعم والمشرب والمنكح يزيد على تمتع الإنسان، فإن كنت ترى مشاركة البهائم ولذاتهم أحق بالطلب من مساهمة الملائكة في فرحهم وسرورهم بمطالعة جمال حضرة الربوبية، فما أشد غيئك وجهلك وغباوتك، وما أخس همتك وقيمتك على قدر همتك. وأما العارف إذا انفتح له

³⁵ إجماع العوام عن علم الكلام، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، راجعها وحققها، إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ، ص. 320

³⁶ Richard. Frank, op.cit, p. 218

³⁷ رسائل الغزالي، سبق ذكره، ص 120

ثمانية أبواب من أبواب جنة المعارف واعتكف فيها ولم يلتفت أصلاً إلى جنة البُله، فإن أكثر جنة البله، وعليون لذوي الأبواب كما ورد في الخبر³⁸.

إن غاية المسلم العادي من أهل العوام هي الفوز بالجنة المحسوسة المذكورة في القرآن على ظاهرها وبكل ما فيها من لذات ومتع حسية، في حين يتجاوز الصوفي هذه اللذات إلى لذائذ لا تقاس بالمقارنة مع هذه اللذات الحسية، فهو يتمتع بالنظر إلى وجه الله تعالى ومعاينة صفاته، فهذه أرقى المعارف وأعلاها على الإطلاق، وشتان بين لذة ولذة وبين جنة وجنة.

إننا هنا أمام جنتين: أولى، وهي التي وعد بها عامة الناس وفيها ما ذكره القرآن من لذائذ ومتع حسية من مأكّل وملبس ومنكح، وأخرى روحية خاصة بأهل الذكر والتصوف، وهي على النقيض تماماً من الجنة الأولى، حيث تكمن لذائذها في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته والتمتع بالنظر إلى وجهه، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة³⁹.

هكذا يخلص الغزالي إلى ما بدأ منه، فمن ثنائية الدنيا والآخرة، وصولاً إلى الظاهر والباطن، ينتهي إلى ثنائية حدّية هي أهل الجنة المحسوسة - البُله - وأهل الخاصة أصحاب الروحانيات واللذات العلية، وهو بذلك لا يخدم سوى نزعة الصوفية التي جعلته يرقى بثلة من المؤمنين إلى مصاف الخاصة، ويُنزل من عامتهم إلى مصاف ذوي اللذات الحسية المبتذلة، الذين يحبسون أنفسهم في ظاهر النص الذي لا يؤتي من الأكل إلا قشوره. وما هذا التمييز الطبقي إلا وسيلة لكشف علوم النص التي جعلها أبو حامد أرقى العلوم الدينية التي لا يطالها سوى عليّة القوم وأشرفهم علماً ومنزلة عند الله. إن هذا الحفر الجيولوجي الذي يقوم به الغزالي في النص مستخرجاً منه علوماً لا تطالها الأذهان البسيطة ممن صوّرت لهم الآيات في قشورها، يكشف عن غاية الغزالي القصوى، متمثلة، ليس في الانتصار للمذهب الأشعري فقط، بل في الارتقاء بتصوره إلى مصاف الخاصة أو خاصة الخاصة حتى يتجاوز بذلك تأويلات المعتزلة العقلية الذين يصنفهم ضمن زمرة الفلاسفة، فما كان منه إلا بناء درجات متتالية من التأويل العقلي للنص تتجاوز العقل ذاته، ليصل إلى التأويل العرفاني الذي لا ينزع عنه الغزالي صفة العقل والمعقولة.

³⁸ جواهر القرآن، ص 77

³⁹ نفسه، ص 72

المصادر والمراجع:

- أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن، اعتنى به وراجعها سالم شمس الدين، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 2005
- أبو حامد الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، مكتبة الثقافة الدينية، 2004
- إجماع العوام عن علم الكلام، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، راجعها وحققها، ابراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.
- نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط.6، 2005
- Richard. Frank, "Philosophy, theology and mysticism in medieval Islam, text and studies on the development and history of kalam vol I 2005, Ashgate variorum.
- Timothy J. Gianotti, Al-Ghazali's unspeakable doctrine of the soul, unveiling the esoteric psychology and eschatology of the Ihya', Brill, Leiden Boston, Kölh 2001.
- Wolfson, Harry Austin, the philosophy of the kalam, Harvard University Press, Cambridge, London, 1976.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com